

٤٣ - التنمية المستقلة

لماذا نطرح التنمية المستقلة كعنصر مهم من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي، ومن المفروض أصلاً أن الكون كله لله وبالتالي فإن ثروات هذا الكون تكون لجميع عباد الله وعن طريق التعاون بينهم.

والإسلام أصلاً يحض علي التعاون بين البشر لاستثمار الثروات ويجعل حبس وسائل هذا الاستثمار من علوم وتقنية جريمة وإثماً كبيراً، كما يؤكد علي حقيقة عدالة التوزيع بمعنى أن تكون هذه الثروات لصالح جميع البشر وليس مجموع منهم فقط.

والله تعالى وضع في الأرض والكون من الثروات ما يكفي لسد حاجة كل البشر بل وتكفي أضعافهم آلاف المرات بشرط بذل الجهد في الكشف عن الثروات وتوزيعها بعدالة يقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢١).

ظلم بمعني: لا يوزع الثروات بعدالة، وكفار بمعني: لا يبذل الجهد

الملائم في الكشف عنها، لأن الكفر لغويًا يعني السر وعدم الكشف ولجحود.

نحن إذن نطالب ونحرص علي التعاون بين البشر في كل مجال والمجالات الاقتصادية خصوصًا، ونريد أيضًا ترقية وتحسين وسائلنا الإنتاجية بأحدث وسائل العلم والتكنولوجيا، ولكن هناك ظرفًا عالميًا خاصًا يعيشه العالم الآن يحتم علينا خيار التنمية المستقلة، ذلك أن أوروبا استخدمت تفوقها العلمي والعسكري في قهر العالم أجمع ونهبه وضاعت العلاقات الاقتصادية الدولية بحيث تصب في النهاية لمصلحتها علي حساب الشعوب الفقيرة، وأصبح الحديث عن حرية التجارة حديثًا عن حرية النهب أساسًا بل وأصبحت مؤسسات مالية دولية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي مجرد قفازات لتشيويه البيئة الاقتصادية المحلية في الأقطار الضعيفة بحيث يسهل نهبها.

والاستعمار القديم والجديد وفي كل صوره عمل جاهدًا بالقهر والعنف أو بالخداع عن طريق الجيوش أو عن طريق اتفاقيات التجارة الدولية والنظام النقدي الدولي، والمؤسسات المالية الدولية علي صياغة البيئة الاقتصادية والاجتماعية في الدول الضعيفة بحيث تحقق للدول الاستكبارية أكبر قدر ممكن من النهب^(١) وبالطبع فلا سبيل - طالما كان

(١) راجع في هذا الصدد د. محمد مورو - صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر - الزهراء للإعلام العربي.

هناك هيمنة ونهب أوروبي واستكباري - إلا اتخاذ طريق التنمية المستقلة، وقطع كل خيوط التبعية بل وكل ما أمكن من العلاقات الاقتصادية مع الدول الاستكبارية، والاعتماد على نمط من التنمية يعتمد على الثروات والخبرات المحلية - مهما كانت مختلفة - إنتاجاً واستهلاكاً.

على سبيل المثال، فإن القوى الاستكبارية تحرص مثلاً على تشويه وتدمير البنية المحلية في قطاع البناء بمعنى تشجيع ودعم بناء العمارات على النمط الأوروبي، فيتكدس الناس في شوارع ضيقة وعمارات عالية، وهذه تستلزم خامات وخبرات أجنبية في عملية البناء، وتحتاج بعد البناء إلى أجهزة تكييف نستوردها من الغرب، وتحتاج إلى مصاعد نستوردها أيضاً من الغرب، وفي النهاية يحدث تكديس وازدحام في الشوارع فنحتاج إلى بناء كباري علوية نعتمد في بنائها طبعاً على خامات وخبرات أجنبية ثم تحدث مشاكل رفع المياه التي تحتاج إلى ماكينات رفع من الغرب أيضاً، ومشاكل في الصرف الصحي تهدد صحة أطفالنا.. وهكذا كل شيء يصب في النهاية في جيب الغرب على حساب مواردنا المحلية ولو أننا فهمنا اللعبة، ونفذنا نمطاً من العمارة يراعي الاعتماد على الخامات المحلية والخبرات المحلية ويلائم المناخ ويأخذ مختلف العوامل الاجتماعية والمناخية في اعتباره لكان الأمر مختلفاً، حيث يمكن استخدام خامات من التربة المحلية وهذه لا تحتاج مثل الأسمنت إلى أجهزة تكييف وكذلك

في طريق تصميم المباني بحيث تكون ملائمة للتهوية ودرجة الحرارة، ولاحظ أن لدينا صحراوات واسعة فما الداعي إلى العمارات العالية وماكينات رفع المياه والمصاعد والشوارع المزدحمة، ألم يكن من الأفضل الاتساع أفقيا بدلا من رأسيا لتوفير أجهزة التكييف والمكينات والمصاعد بل وتوفير مصاريف الكباري العلوية.. وغيرها^(١) وصناعات ومنتجات البلاستيك مثلا التي نهدر فيها الكثير بسبب الاعتماد على الخامات الأجنبية والخبرات الأجنبية التي يمكن الاستغناء عنها بصناعة الفخار المعروفة في الصعيد وهي صناعة قادرة على توفير أفضل أنواع الأواني فضلا عن تحملها الشديد للحرارة بعكس البلاستيك بحيث يمكن أن تكون كل الأواني وأدوات الطعام من الفخار، وهذا الفخار يعتمد على خامات محلية وخبرات محلية وهو من الناحية الصحية أفضل من البلاستيك الذي له أضرار مؤكدة من الناحية الصحية^(٢).

وكذلك صناعة الحصر في الريف المصري المعتمدة على نبات ينبت على شواطئ الترع أي مجانا هو نبات «السمار» ويمكن به الاستغناء عن

(١) المهندس حسن فتحي تجربة جديرة بالاهتمام في هذا الصدد وضعها في حيز التنفيذ في عدد من القرى التي صممها وبنها ويمكن مراجعة كتابه في هذا الصدد بعنوان «عمارة الفقراء» كتاب اليوم.

(٢) د. محمد مورو - دفاع عن الاقتصاد الريفي - مجلة العالم اللندنية ١٩٨٥.

السجاجيد الفخمة والمفروشات البلاستيكية، وكذا صناعة الجريد من النخيل والتي يمكن بها صنع كل أنواع الأثاث المنزلي والمكتبي اعتماداً على خامات محلية وخبرة محلية، وكذلك الصناعات المنزلية المعتمدة على «الغاب» وهو نبت رخيص جداً يزرع على حواف الأراضي والترع والمصارف ويمكن صناعة أواني حفظ الخبز أو تخزين الطعام منه وكل هذه الصناعات خاماتها رخيصة وموجودة وخبراتها أيضاً موجودة، وكانت بالفعل ولفترة قصيرة سابقة منتشرة في الريف إلا أنها بدأت تنهار بعد دخول صناعات البلاستيك وغيرها.

ونظرة واحدة إلى الريف المصري ترينا كيف تم ارتكاب جريمة بشعة، جريمة نهب تحت شعار التحديث، فالبيت الريفي مثلاً كان يعتمد في بنائه على الطوب اللبن المصنوع من التربة المحلية، والسقف من الجريد والغاب، وفي هذا البيت يوجد فرن لصناعة الطعام ولصناعة منتجات الألبان ويستخدم أيضاً في التدفئة، وهذا الفرن يعتمد في وقوده على روث المواشي وعلي قش الأرز والذرة وحطب القطن، وكلها موجودة بكثرة في البيئة المحلية، وفي البيت الريفي توجد حظيرة للمواشي والطيور، أي هناك اكتفاء ذاتي من اللحوم والبيض ومنتجات الألبان، كما أن هذه المواشي كانت تقوم أيضاً بحمل المنتجات الزراعية من الحقل إلى المنزل

وحمل السجاد البلدي ولوزام الزراعة من المنزل إلى الحقل مثل الجمال والحمير والبغال، أو تقوم بإدارة ماكينات الري «الساقية والطمبوشة» وكذلك جر المحراث والقصائية وغيرها من آلات الزراعة وكان الفلاح يستفيد بكل هذا في تكامل شديد وبدون اعتماد على خامات أو خبرات من الخارج، أي نمط تنمية مستقل، أما الآن فالبيوت أصبحت من الأسمنت والحديد، ولا حظائر للمواشي، أي لا سجاد بلدي، ولا لحوم ولا بيض ولا إدارة للآلات الزراعية ولا نقل عن طريق تلك المواشي، ولا فرن محلي، بل الاعتماد على الخبز المصنوع والطعام المصنوع على أفران البوتاجاز أو السولار؛ أي هناك حاجة مستمرة لعربات نقل، وسجاد كيميائي، ووقود غازي أو سائل للأفران والمواقد، ولا حظائر للتخلص من الزبالة والمخلفات، التي كانت تتحول إلى سجاد بلدي بدلا من شبكات صرف صحي، أي أن الإنتاج الريفي لم يصبح مستقلا بل معتمدا على الخارج أي دخل في دائرة النهب العالمي المعروفة.

وفضلا عن هذا فإن الفلاح المصري مثلا كان يبدأ يومه عقب صلاة الفجر مباشرة حيث يصطحب المواشي ويذهب إلى الحقل فيعمل في ضوء الشمس طوال النهار، ويعود بعد أذان المغرب، لينام عقب صلاة العشاء، أي أنه كان يستخدم ضوء النهار كله، ولكن الآن تعود على السهر بعد أن

اختل نظام الإنتاج، لأن نظام الإنتاج القديم كان يفرض عليه الاستيقاظ مبكرا والنوم مبكرا، أما الآن فيمكنه السهر إلى ساعة متأخرة من الليل بها يترتب عليه من استهلاك اللوقود، فلا عن تشويه العلاقات الاجتماعية الريفية التقليدية.
